

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، بارئ الخلائق أجمعين، باعث الأنبياء والمرسلين، ثم الصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبیب قلوبنا أبي القاسم المصطفى محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الأبرار المنتجبين سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة الأبدية على أعدائهم إلى يوم الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

دروس في أصول العقائد

(مباحث المعرفة)

(١٣)

١٠- الأرشيف الذهني والذاكرة

كما يمكن الجواب عن أصل النظرية الحسية وعن دعوى مرجعية الحواس في تصحيح أخطائها بنفسها، بالتعمق الأكثر في (الوسائط المعرفية) أي الوسائط التي من خلالها ندرك العالم ونحكم عليه ونتعامل معه، إذ أن التدقيق يقودنا إلى وجود وسيطين . على أقل الفروض . بيننا وبين عالم الخارج:

الوسيطان للمعرفة: الصور الذهنية والمعلومات الإرشيفية

الوسيط الأول: هو ما سبق من (عالم الصور الذهنية) الذي شكّل الإجابة التاسعة.

الوسيط الثاني: هو (عالم المحفوظات الذهنية والصور المتأرشفة في الأذهان) والذي يشكّل الإجابة العاشرة.

و(الحسيون) يواجهون معضلة حقيقية على كلا المستويين وفي كلا العالمين، في مواجهة أسئلة ثلاثة لا يمكنهم الإجابة عنها:

أ - أصل وجود المحسوسات بالحواس الخمس وغيرها مثل بعض أنواع الطاقة غير المحسوسة.

ب- حدود الوجود وتشوّه الصُّور من عدمها.

ج- المطابقة واللا مطابقة والصحة والخطأ^(١).

توضيح ذلك: إننا عندما نرى الجبل والبحر، أو السوق والجامعة، أو زيداً وعمرواً وعندما نسمع عن كل ذلك أو نقرأ^(٢)،

فإن صوراً متتابعة متنوعة كثيرة تنطبع منها في أذهاننا كما سبق تفصيله وهذه هي المرحلة الأولى، ثم إن الذهن يختزن هذه الصور

في مركز الذاكرة وفي الأرشيف الذهني الذي يتجسد مادياً في بعض خلايا المخ الرمادية.

(١) هذا الثالث مقسم للأولين، وليس قسيماً فلاحظ.

(٢) أو نحس بها بأية واحدة من الحواس الخمس.

والتأمل الجاد يقودنا إلى ان حياتنا في ٩٩,٩٩% منها قائمة على الإدراك والتعامل مع الأرشيف الذهني المحفوظ لدينا عن الأشياء وليس على الصورة المنطبعة في الذهن في ذات لحظة الاتصال بواسطة الحواس الخمسة، فعندما أفكر مثلاً في أبي أو ابني أو معلمي أو مدرستي وشركتي ووطني وأمتي فإن ذكرياتي ومعلوماتي عنهم التي تتوزع على مدى عشرة أو عشرين أو خمسين عاماً هي كلها صور ذهنية محفوظة في الخزانة.^(١) وذلك يعني أنني عندما أنظر إلى والدي مثلاً فإن (البث المباشر) ليس إلا للصورة التي تنتقل عبر الشبكية إلى سلسلة الأعصاب ثم إلى مراكز الرؤية في الدماغ في نفس اللحظة بل في جزء من اللحظة لا غير، أما ما عدا ذلك، أي بعد مرور جزء من مليون جزء من الثانية بل وأقل، فليست الصور والمعلومات التي لي عنه، إلا أرشيفاً مخزناً في أرفف الذاكرة.

من أين ان الذاكرة ليست مخطئة أو مخادعة؟

وهنا بالضبط تبرز الأسئلة الصعبة: فمن أين أن الذاكرة . وهي ليست إلا صوراً مأرشفة ومخزنة . ليست مخطئة أو مخادعة أو خائنة في أصل الصورة التي خزنتها أو في حدودها وفي أصل أو مدى مطابقتها للواقع الخارجي وعدمها؟ وبكلمة موجزة: إننا نتعامل مع كافة ما يحيط بنا بواسطة ما يشبه البث غير المباشر أي أننا نسبح في بحر من الذكريات^(٢) (بقاءً) بعد أن كنا نسبح في بحر من الصور (حدوثاً) والحسيون لا يمكنهم الجواب عن احتمال أن يكون كل ذلك هلوسة^(٣) أو أحلاماً أو أحلام يقظة أو خيالاتاً مجنّحاً، وذلك لأن (المحفوظات الذهنية) لا تُرى و لا تُلمس ولا تُشم ولا تُذاق، وإذا كانت الحواس الخمسة هي النافذة الوحيدة للمعرفة فكيف يمكننا الحكم بصحة كافة الصور الذهنية والأرشيف المعرفي الذي لنا عن الأشياء مع أن الحواس الخمسة لا تنالها بنحو العلة المبقية بالمرّة وإن فرض أنها المنشأ لها بنحو العلة المحدثّة؟

(١) في الحس المشترك أولاً ثم في مراكز الخيال والمتوهمة ثم في الحافظة فالمتخيلة (والقوى الباطنة . حسب بعضهم :: أولها الحس المشترك، وهو الذي ترسم فيه صور الأشياء المحسوسة بالحواس الظاهرة.

والثانية: الخيال، وهو الذي يحفظ ما يرتسم في الحس المشترك.

والثالثة: الواهمة، وهي التي تدرك بها المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، كعداوة زيد، ومحبة عمرو، ومحبة الشاة لولدها، وعداوة الذئب لها.

والرابعة: الحافظة، وهي التي تحفظ المعاني الجزئية، ونسبتها إلى الواهمة كنسبة الخيال إلى الحس المشترك.

والخامسة: المتخيلة، وهي التي ترتّب بين الصور والمعاني، فتثبت بعضها لبعض، وتنفي بعضها عن بعض.

(٢) إذًا: البحر الذي نسبح فيه هو عالم الصور الذهنية أولاً وقد سبق في الجواب التاسع، ثم إنه لو اقتصر الأمر على ذلك لكانت معضلة واحدة، إلا أن هذه الصور الذهنية تتحول فوراً . بعد مضي أقل من جزء من مليار جزء من الثانية وأقل . إلى صورة أرشيفية، ومن الواضح أن ههنا مكمنان للخطأ: الخطأ في أصل التصوير والانطباع، والخطأ في الحفظ والأرشفة الناشئ من سوء التخزين والتحويلات والتغيرات اللاحقة وشبه ذلك.

(٣) أو نوعاً من أنواع المايخوليا.

ولنتوقف عند شاهد على ذلك من كلمات بعض فلاسفة الغرب إذ يقول: برتراند راسل (أنه من الممكن أن يكون هذا العالم

وليد خمس دقائق مضت، وأن كل من فيه يمتلك "ذكريات" بكرة، ويتذكر جميعهم ماضياً غير حقيقي بالكلية.

على أننا لو بدأنا نسال، بجدية، حول موثوقية الذاكرة، فإننا سنجعل أي نوع من التواصل محالاً: فلو عجزنا عن افتراض أن تذكرنا معاني الكلمات أمر يعتمد عليه فلا سبيل لنا، حينها، إلى مناقشة مبدأ التشكيك، كما سيكون من المقبول اعتبار أن تجربة الفكر التي قام بها العالم الشرير بتلاعبه بدماعٍ موجودٍ في جزّة، تقدّم بالفعل تشكيكاً في مدى موثوقية الذاكرة، إذ إن من المفترض أن تكون ضمن قدرة معدّبنا على إقناعنا بأن الكلمات لا تعني سوى ما يريدُه هو^(١).

وبعبارة أخرى: من أين نضمن أن الماضي كله . بكافة علومنا ومعلوماتنا ومعارفنا التي تلقيناها في المدارس وغيرها . ليس إلا مجرد كذبة كبرى؟ أما الحاضر فإنك لا تكاد تمسكه حتى يتحول بأسرع من لمح البصر إلى ماضٍ وذكريات وأرشيف، وأما المستقبل فليس موجوداً بالمرّة الآن أبداً؟.

خياران في مواجهة الحسين: السفسة أو حكومة العقل

وهكذا نجد أن الحسين أمام خيارين لا ثلاث لهما: إما أن يتحولوا إلى فلاسفة سوفسطائيين بأن يدعونا للشبهة السابقة ويستسلموا لها مادامت الحواس هي النافذة الوحيدة للعلوم والمعارف ومادامت الحواس عاجزة عن لمس ورؤية وتقييم المحفوظات الذهنية، وإما أن يقبلوا بـ(حكّمية العقل)^(٢) فيتخلصوا عن الشبهة السابقة ونظائرها بالإذعان بأن للمعرفة مصادر عديدة، منها: الحواس وهي النافذة التي تنتقل عبرها الصور الحسية حدوثاً، ومنها العقل الذي يضطلع بأدوار عديدة ومنها الحكم على (عالم الصور الذهنية) ثم (عالم المحفوظات الأرشيفية) بأنها ليست بالسراب ولا الخيال ولا الأوهام ولا الأحلام ولا الكذبة الكبرى التي صنعها عالم شرير!

وصفوة القول: إن المائز بين الخيال والواقع وبين الأحكام والأوهام وبين الحقائق والأكاذيب هو (العقل) و(الفطرة) فهي التي تحكم بأن سجّل محفظاتي عن والديّ أو ابنائيّ أو أسرتي أو مجتمعي هي . كأصل . صور واقعية عن حقائق عينية التقطت في الماضي لكنها احتفظت بسلامتها على مدى تعاقب الأزمان، وذلك هو الأصل الذي لا يغفل العقل أيضاً أن يدرك هامش الخطأ فيه في مرحلة العلة المبقية كما أدرك هامش الخطأ^(٣) بنحو العلة المحدثّة.

(١) أسس الفلسفة / نيغيل واربورتون / ص ١٥٦-١٥٧ .

(٢) أو الفطرة والوجدان، فهي إذاً نوافذ أخرى إلى المعرفة.

(٣) في أمثلة السراب والخطين المتوازيين ودائرة النار وانكسار العصا... الخ.

ويدل على ما ذكرناه . إضافة للعقل والوجدان فإننا نجد كل ذلك من أنفسنا ووجداننا . النقل الصريح أيضاً . وهنا نتوجه بالخطاب إلى المتدين بالقرآن الكريم بعد أن كان الخطاب حتى الآن حتى للمنكر .

دلالة قوله تعالى: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) على مرجعية العقل

ويكفي هنا أن نستدل بقوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)^(١) ففي الكافي والتوحيد^(٢)، عن الإمام الرضا عليه السلام أنه سئل عن ذلك فقال: ما كذب فؤاد محمد (صلى الله عليه وآله) ما رأت عيناه ثم أخبر بما رأى فقال: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» فآيات الله غير الله.^(٣)

والحاصل أن مرجع الضمير والفاعل في (رَأَى) حسب هذه الرواية هو البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر إذ إن بصره صلى الله عليه وآله (رأى من آيات ربه الكبرى) وقد قال تعالى قبل ذلك: (ما زاغ البصر وما طغى) وقد صدقه الفؤاد أيضاً فكيف يكون مخطئاً أو واهماً؟.

والمراد بالفؤاد العقل أو الفطرة أو القلب المراد به مركز الإدراك المرجعي .

ومعنى ذلك: أن بصره صلى الله عليه وآله رأى الآيات الكبرى، وقد صدقه الفؤاد أيضاً، فكان هو المرجع في الحكم على ما تشاهده الحواس بالمطابقة للواقع أو اللامطابقة وبالصحة أو السقم في الابعاد الثلاثة الوجود والماهية والحدود، فتدبر جيداً.

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين

(١) النجم: ١١ .

(٢) الصافي: ج ٣ ص ٣٧٠ سورة النجم .

(٣) ولا يتنافى هذا التفسير مع التفسير الآخر الذي وردت به روايات أيضاً والذي يُرجع الضمير والفاعل في رأى إلى الفؤاد، إذ لا مانعة جمع: فأن الفؤاد يرى بعينه ويحكم على ما رآه بصحته أو بسقمه كما يحكم على ما رآه بعينه الجارحة وقد رأى (صلى الله عليه وآله) بالاثنتين، فانتبه.